كلمة الدكتور سامي مروان مبيّض في حفل تأبين العلامة الأستاذ الدكتور مروان محاسني، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (ألقيت بتاريخ 15 حزيران 2022).

أيتها السيدات، أيها السادة

قد يستغرب البعض وقوفي أمامَكم اليوم لإلقاء كلمةٍ باسم آل الفقيد، متسائلينَ عن علاقتي بالمرحوم الدكتور مروان محاسني. فهناكَ كثيرٌ من الناس كانوا أقرب منّي إليه، وأعلَمَ منّي به، وأقدرَ منّي على رثائه، ولكنّ زوجَته الفاضلة الدكتورة فريدة النابُلسي طلبت مني اليوم أن أقف في هذا المقام نظراً للعلاقة الخاصة التي جمعتني بالدكتور مروان، وتحديداً في سنواتِه الأخيرة، حيثُ كان يعتبرني واحداً من أولاده.

خلال السنواتِ القليلة الماضية، جلستُ طويلاً في حضرةِ الدكتور مروان، وكان حديثنا الدائم يدور حول مدينة دمشق في زمنها الجميل، عن ذكرياتِه الملونة في أزقّتِها، وعن علاقاتِه بشخصياتٍ تاريخيةٍ عَرَفها عن قُربٍ وتأثَرَ بها كثيراً. لا تبحثوا عن هذه المنمنمات التاريخية، فلن تجدوها في أي كتاب، ولا في سيرة الدكتور مروان التي نُشرت في كبرى الصحفِ العربيّة يومَ رحيله.

سوف أبدأ من العام ألفٍ وتسعمائةٌ وتِسعة وأربعين...

استيقظ الدكتور مروان محاسني يومَها على طرقٍ عنيفٍ على بابِ منزِل أبيه، القاضي فؤاد محاسني. وعندما فتح فقيدُنا الباب وجدَ سيدةً تبكي بحُرقةٍ وتقول، "أين أباك؟"

عَرَف فوراً أنها "ليلى خانم،" زوجةُ الرئيس خالد العظم، صديقُ أبيه الحميم.

"الوالد نائم..."

"أيقظهُ بسرعة...فقد أخذوا خالد."

كان ذلك في الساعات الأولى من التاسع والعشرين من آذار عام ألف وتسعمائةٌ وتسعةٍ وأربعين، يوم 29 آذار 1949، يوم انقلاب حسني الزعيم.

دخلَ الولدُ على أبيه وخبره أن مجهولين اقتادوا الرئيس العظم من دارِهِ إلى مكانٍ مجهول. نَهَضَ فؤاد محاسني من الفراش، وذهب مسرعاً برفقةِ ابنه الشاب إلى منزلِ أمينَ عام القصر الجمهوري الدكتور محسن البرازي، مُستفسراً عن مصير خالد العظم ورئيس الجمهورية شُكري القوتلي.

كانت هذه الذكرة عزيزةً على قلبِ مروان محاسني، وكان يرويها أمامي باستمرار قائلاً: "هذه هي مساهمتي عشية انقلاب الزعيم: إيقاظ محسن البرازي من النوم، والبحث عن خالد العظم."

بعدها بستِ سنوات، طلب خالد العظم من الدكتور مروان المشاركة في حملته الانتخابية، والإشراف على صناديق الاقتراع في انتخابات رِئاسة الجمهورية التي أقيمت في منتصف الخمسينيات. كان خصمُهُ يومها الرئيس القوتلي، الذي عاد من منفاهُ في مِصر ليترشح للرئاسة الأولى. وقد احتارَ الدكتور مروان بأمره، فهو المكلّف رسميّاً بدعم حملةِ خالد العظم الانتخابية، ولكنه كان يكن يحمل للرئيس القوتلي كل الاحترام والتقدير.

اجتمع الدكتور مروان بالرئيس القوتلي للمرة الأولى إبّان العدوان الفرنسي على مدينةِ دمشق، في التاسع والعشرين من أيار عام ألفٍ وتسعمائةْ وخمسةٍ وأربعين، بعد حصولِه على الشهادة الثانوية من مدرسة الفرير. وقد عرض ورفاقه على رئيس الجمهوريّة فكرة حمل السلاحِ وتشكيل مقاومةٍ شعبيةٍ لردِ العدوان، ولكن القوتلي قال لهم: "عودوا إلى دروسِكم ومدارسِكم وتسلّحوا بالعِلم، فهذا أنفع لكم ولنا، ووحده العلم قادر على هزِ عرشِ فرنسا."

كان يقولُ لي: "تمنيت عام ألفٍ وتسعمائة وخمسةٌ وخمسون لو أن كلاهما فاز بالرئاسة، أو كلاهما هُزم." كان الدكتور مروان يقف إلى جانب خالد العظم وهم يستمعون إلى البثِ المباشرِ من مجلِسِ النواب لحظة إعلان نتائج الانتخابات. وقد اصطحَبَهُ الرئيس العظم إلى منزل الرئيس القوتلي في الصباحِ الباكر، لتهنئه بالفوز بالرئاسة الأولى، حيث قال له شكري القوتلي مواسياً: "نحنُ ربِحنا الرئاسة، وأنتِ ربِحت نخبةً من شباب دمشق (مشيراً بيده إلى مروان محاسني)

كان يقولُ لي:

"بعد تخرجي من مدرسةِ الفرير، كنت أخرج من بيتي وأركب تراموای المهاجرين للذهاب إلى دروسي في جامعة دمشق. في كلِ صباح، كنت أرمِ السلامَ على المرحوم فارس الخوري، الجالس إلى جانبي في الترامواي.

إذ كانت علاقة مروان محاسني بالرئيس الخوري قوية، منذ أن شارك في مظاهراتِ دمشق ضد الانتداب الفرنسي، تحت رايتهِ وراية قادةِ الكُتلةِ الوطنية.

لطالما هربنا من جنود السنغال، وكثيراً ما كانوا يضربوننا بأعقاب البنادق، ويأخذونا مخفورين إلى كركون الشيخ حسن، ليقومَ فارس الخوري بإطلاقِ سراحِنا بكفالةٍ شخصيةٍ منه، بصفتِه زعيماً ومحامياً وعميداً لكليةِ الحقوق.

ودارت الأيام، وصار الدكتور مروان ضيفاً على مائدة فارس الخوري في منزله الصيفي ببلودان، يجتمعُ معهُ بشكل دوري ومع نائب دمشق وزعيمها فخري البارودي، للتباحث في شؤون السياسةِ والطب والفلسفة.

تأثر مروان محاسني كثيراً بالدكتور قسطنطين زريق، رئيس جامعة دمشق في مطلع الخمسينيات، الذي أعجب بلغته الفرنسية الصافية، وتمكُنه المتين من اللغة الإنجليزية.

وقد عمل تحت إشراف الدكتور زريق على فتح فرعٍ لجمعيةِ العروةِ الوثقى في حرمِ جامعةِ دمشق، التي كانت قد تأسست في جامعة بيروت الأميركية خلالَ الحرب العالمية الأولى. كان الهدف منها تشجيع الحوار والمناظرات بلغة عربية سليمةِ وصحيحةِ وفصحى.

وقد ظلّت اللغةُ العربيةُ الفصحى قريبةً من قلبِه حتى اليوم الأخير قي حياته، وهو الذي دافع عنها بشغف وعمل على صونها بحب وطالب بتعزيزها من موقعه كرئيس لمجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد شرفنا في نهاية حياته برئاسة مجلس حكماء مؤسسةِ تاريخِ دمشق، وكان آخر ظهور له في أمسية عشاء أقامتها المؤسسة في نهاية شهر أيلول الماضي، حيث وقف خطيباً عن تاريخ مدينة دمشق. وقد كان لي شرفَ تقديمِه للحضور، وتقليدِه وسام المؤسسة. سائلته قبل الحفل: "مروان بك...ما هي أفضل طريقة للتعريف عن حضرتك؟ الطبيب الجرّاح؟ أو رئيس مجمع اللغة العربية؟ أو الأستاذ الجامعي؟"

أجاب مبتسماً: "الشامي العتيق، هذا هو اللقبُ الأقرب إلى قلبي."

طيبَ اللهُ ثرى هذا الشاميّ العتيق، المخلص لوطنِهِ وعملِهِ، فقد كان عَلماً وعالماً ومُعلماً. وفي الختام، أسمحوا لي أن أدعو الدكتورة فريدة النابُلسي، زوجة الدكتور مروان محاسني، لإلقاء كلمة، فلتتفضل مشكورة.